

دور الإنسان في منطقة الفراغ



«إنَّ الإنسان يتكوَّن من شهود وغيب، أو ظاهر وباطن، ومن الظاهر بدنه وجواسَّه وجوارحه الظاهرية ويمثِّل ذلك كلَّه في (قلبه)، ومن البواطن روحه وعقله ونفسه وفطرته والجامع لذلك (قلبه) فالإنسان قلباً وقالباً، وإنَّه - كما يبدو - في خلقه الأوَّلي قد جعل بمنزلة بئر نصفه التحتاني ملئ، ونصف الآخر فارغ، والنصف المملوء والصمدي إنما يعبِّر عنه بالفطر الموحدة، وإنها مجلّي ومراة لصمديَّة □ وغناه، فإنَّ من معاني الصمد في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ) (الإخلاص/ 1-2)، المملوء الذي لا فراغ فيه ولا يوف له، ف□ سبحانه في وجوده الواجب لذاته وبذاته صمدٌ غني في ذاته وأسمائه وصفاته الكمالية، وقد تجلَّت الصمديَّة الإلهية فيمن يستخلفه من خلقه، أي الإنسان الكامل العيني ومن يحذو حذوه، وينهج منهجه ويسلك طريقته، وفي بداية الأمر قد أملى □ الإنسان في نصفه بفطرة موحدة (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم/ 30).

ومن الأُمور الوجدانية والبيديَّة في الإنسان أُمياله الباطنية، فإنَّه يميل إلى ما يرغب ويحبُّه، ومنشأ الأُميال هذه إمَّا الغرائز أو الفطرة، والفرق بين الميلين الفطري والغريزي أنَّ الأوَّل ينطلق من فطرة الإنسان ومن النصف المملوء، وإنَّه من الأمر التكويني، وأنَّ دليل الفطرة من الدليل العصمتي، ثمَّ للفطرة وميلها ينابيع ثلاثة:

1- حبُّ الكمال. 2- حبُّ الجمال. 3- حبُّ الخير، فإنَّ كلَّ واحد من البشر بفطرته يجب الكمال والجمال والخير، ولو خلَّى ونفسه، فإنَّه تكوينيًّا يميل إلى تلك الجهات، فالإنسان في إصالته وفطرته لم يخلق □ جانبيًّا وشريرًا، بل العوامل الخارجية كالفقير في المجتمع تجعل الإنسان سارقًا وشوررًا، ولما كان الكمال والجمال والخير المطلق ومطلق الكمال والجمال والخير هو □ سبحانه وتعالى، فإنَّه بفطرته يميل إلى ربِّه وصانعه وعلاَّه وجوده، فكلُّ مولودٍ يولد على هذه الفطرة والمسمَّاة بفطرة التوحيد أو الفطرة الموحَّدة، أي كلَّ واحد يجب الوصول إلى الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو □ سبحانه الواحد الأحد الذي لا شريك له ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، إلَّا أنَّ أبويه يهوِّدانه وينصِّرانه أو يمجِّسانه، فيقول: العُزيز ابن □، أو يؤمن بالأقاليم الثلاثة، أو يعتقد بالهين إله النور وإله الظلمة (يزدان وأهريمن).

وأَمَّا الميل الغريزي، فإنَّه بلا جهة إنَّما توجيه ذلك يتمُّ باختيار الإنسان وحرِّيته، فأَمَّا أن يميله بغرائزه كالغريزة الجنسية، إلى ما عليه اسم الرحمن كالنكاح الشرعي أو ما عليه اسم الشيطان كالسفاح المحرَّم.

وهذه الغرائز إنَّما جعلت هي في منطقة الفراغ وفي النصف الفارغ من وجود الإنسان، إلا أنَّ سبحانه بلطفه ليقرَّب العبد إلى طاعته ويبعده عن معصيته، ويملي هذا الفراغ بصمديته عزَّ وجلَّ، أرسل إليه الرسل وبعث الأنبياء وأنزل الكتب، وجعل الأوصياء والأولياء، كما أيَّدهم بالحجَّة الباطنية من العقل، كما أعانه بفطرته الموحَّدة، كلُّ هذا اللطف من العليِّ الخير ليتكامل الإنسان، ويستخلف في غناه وصمديته، ويملي الفراغ الذي فيه، إلا أنَّه لحكمته، وإنَّه يسأل، ولا يُسأل فسح المجال للشيطان أيضاً، أن يستغلَّ منطقة الفراغ، ومن ثمَّ يُفرِّغه من فطرته، ويعمي عليه ينابيع الفطرة ويميت قلبه، ويتمطَّاه إذا اختار الإنسان ذلك، فالإنسان مختار بين أن يستجيب لما يُحييه من دعوة أو رسوله، أو يستجيب لما يميت قلبه من دعوة إبليس وأعدائه من الجنِّ والإنس، فكلُّ واحد مخير بين دعتين: إلهية وشيطانية (إنَّنا هدَّيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان/ 3).

وزبدة الكلام: إنَّ الفطرة تمتاز عن الغريزة أنَّها لو خُلِّيت ونفسها من دون أن تكون هناك عوامل مؤثِّرة من داخل الإنسان كالنفس الأمَّارة أو من خارجه والمحيط والمجتمع العام أو الخاص كالأسرة وتربية الوالدين، فإنَّه يميل إلى جهة واحدة تكويناً وهو الكمال المطلق، فهي مفطورة بحبِّ الكمال والجمال والخير المطلق، فتعلِّقُ برَبِّها وخالقها تكوينياً، وبالعلم الحضورى وليس الحسولى بحصول صورة في الذهن، بل حضوراً بأن يحضر نفس النفس، والمعلوم بنفسه إلى النفس نفسه، فإنَّ النفس حاضرة ومكشوفة لذات نفسها، فتعلِّقُ النفس بصانعها وخالقها تعلِّقُ تكويني في مقام الثبوت (ومن عرف نفسه فقد عرف ربه) إلا أنَّه يستكشف ذلك بالأمل والرجاء وبالأثار والآيات الآفاقية وإلاَّ نفسية، كما في حديث السفينة إنَّها لو انكسرت في وسط البحر، وكان أحد الركاب على لوحة منها تلعب الأمواج المتلاطمة بها، فإنَّ القلب يتجه إلى جهة خاصَّة تنجيه من الغرق ويأمل ويرجو ذلك وهذا من نداء الفطرة الموحَّدة، فتعلِّقُ القلب بالإنسان عند إنقطاع الأسباب وتقطع المسببات، إنما هو تلبية لنداء الفطرة السليمة من شوائب المادِّيات والأهواء والأغراض والتربية الفاسدة من البيئة والمحيط العام أو الخاص كالأسرة، فالقلب يرجو ربه (دعوا إلى مخلصين) في مقام الثبوت والواقع، وأمَّا في مقام الاثبات والأدلة (لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَاهُ ثُمَّ لَنَعْلَمَنَّ) (الزخرف/ 9)، فلا تشيع الفطرة إلاَّ بكمالها المطلق (وَأَنَّى لِلَّهِ إِلَهِي رَبِّكَ الْهُمْنَتَهِى) (النجم/ 42)، فتتلذَّذُ بالإنسان عزَّ وجلَّ وتطمئنُّ إليه (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28)، (واجعل لساني بذكرك لهجاً وقلبي بحبك متَّهماً) [1] وفي عبادة ربِّها: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) (يس/ 60)، وهذا من حقائق الفطرة (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم/ 30)، (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ) (الإسراء/ 23).

قال الإمام الصادق (ع): "فطرة الإسلام" "الحنفية من الفطرة" وهذا يعني أنَّه فطرهم على المعرفة، وعرفهم في عالم الميثاق والنشأة الإنسانية الأولى المسمَّى بعالم الذرِّ وعالم أَلَسْتُمْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (الأعراف/ 172)، ميثاق فطرتهم (أَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِي نِعْمَتِهِ)، فإذا أُحْبِيت أن ترجع نفسك إلى ربِّها راضية مرضية، وتدخل جذَّة الإنسان من الأسماء الحسنى، وتدخل في عباد الله المقرَّبين، إنَّما يتمُّ ذلك لو تجلَّى فيك توحيد الصديقين، أن تعرف الله بالإنسان (بك عرفتك وأنت دللتني عليك) (وتردِّي في الآثار يوجب بعد المزار) (كيف يستدلُّ عليك بما هو في وجوده يفتقر إليك، أَيْكون لغيرك من الظهور ما ليس لك عميت عين لا تراك عليها رقيباً) [2].

فالنفس الإنسانية متعلِّقة بفطرتها بالعلم الحضورى، وفي غيره بالعلم الحسولى (فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار) فهذه العلاقة الحميمة بين النفس وربِّها وبارئها عزَّ وجلَّ من عالم الميثاق، إلا أنَّ الإنسان يغفل، أو يقلِّد الآباء، حتَّى ينسى عهد الله إليه.

فيطلق (عالم الميثاق) تارة ويراد به الفطرة الدالَّة على الربوبية وتعلُّق النفس بالربِّ، وأخرى ما يتعلَّق بالنبِيِّين من أخذ ميثاقهم، وما مخالفة آدم (ع) في تركه الأولى إلاَّ ما خالف في ميثاق الأنبياء وأولي العزم منهم (فلن تجد له عزماً بعد ما نسى) فالإنسان ينقض ميثاق الله وعهده بغفلته ونسيانه. فهل من مدَّكر؟!.

الهامش:

[1] - من دعاء كميل لأمير المؤمنين عليٍّ (ع).

[2] - مقاطع من دعاء عرفة للإمام الحسين (ع).

المصدر: كتاب نظرات في الإنسان الكامل والمتكامل